

الرابطة القلبية للأخوة الإسلامية



«لا تستطيع اللغة أن تعبّر تعبيراً دقيقاً عن مفهوم الأخوة الإسلامية، بأكثر من تعبير (الرابطة القلبية) التي تربط عصبة المؤمنين.. فالمودة والحنان وخفض الجناح، والشعور القلبي الفيّاض، وهي حالات تعبيرية إنسانية لفكرة الأخوة التي تربط الجنس البشري القائم على عبادة الله سبحانه وتعالى...»

وقد تناول القرآن الكريم، الأخوة الإيمانية من هذا الجانب، جانب كونها الرابط القلبي الذي يربط العصبية المؤمنة المجاهدة أبداً في سبيل نشر عقيدة التوحيد.. ففي يوم بدر لما نظر النبي (ص) إلى كثرة عدد المشركين وقلة عدد المسلمين، استقبل القبلة وقال: اللهم انجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة (المؤمنة من المسلمين) لا تعبد في الأرض، فما زال يهتف ربه مادّاً يديه حتى سقط رداؤه من منكبِهِ، فأُنزل الله تعالى: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنْ نَرْسِلَ مِنْكُمْ مُّؤَمِّدًا لَكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ) * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِمْ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (الأنفال/ 10-9). ولمّا أمسى رسول الله (ص) وجدّه الليل ألقى الله على أصحابه النعاس، وكانوا قد نزلوا في موضع كثير الرمل، وسبقهم المشركون إلى الماء، وأصبح المسلمون محدّثين (غير طاهرين) ومجنبين وأصابهم الظمأ، ووسوس إليهم الشيطان فقال: إنّ عدوكم قد سيفكم إلى الماء، وأنتم تصلّون مع الجنابة والحدث، وتغسل أقدامكم في الرمل، فأُنزل الله عليهم المطر رذاذاً حتى اغتسلوا به من الجنابة، وتطهّروا به من الحدث، وتماسك به أرضهم، وأوجلت أرض عدوهم، وألقى الله في قلوب المشركين الرعب.. فربط الله بين قلوب المؤمنين برباط المودة والأخوة الإيمانية، في وقت كانوا يجابهون العدو، وهم قلة في العدد والعدة، وليس لهم من ناصرٍ إلّا الله وإيمانهم، الذي جمع تلك القلوب المتناثرة في الصحراء.. يقول تعالى مكملاً الآيات السابقة: (إِذْ يَغْشَىٰ رُكُومَ النَّعْصِ أَمَدَةٌ مِنْهُ وَ يُنْزِلُ عَلَیْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ رُكُومَ بِهِ يَذُوبُ عَنْكُمْ رِجْزُ الشَّيْطَانِ وَلِيُخْرِجَ مِنْكُمْ قُلُوبُكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ) (الأنفال/ 11)، فالبشرى بالنصر، والثقة بالله، واطمئنان القلب، هي التي جعلت تلك الأجساد المؤمنة تغفو في ذلك الليل، وهي على ما هي عليه من حراجه الموقف، وقلة الناصر، وقوة العدو، فأفاد الله عليهما بالطمأنينة والأمان، فاستلقت غير عابئة بمخاطر ذلك الموقف الرهيب.. فثبت الله في ذلك الموقف قلوب المؤمنين، وجعلهم كتلة إيمانية واحدة، تتكاتف حركاتهم وجهودهم وأحاسيسهم في سبيل القضية الكبرى، قضية دعوة البشرية لعقيدة التوحيد.

وهم يحملون نفس الروح والشعور، يتوجهون إلى الله بالدعاء للذين سبقوهم بالإيمان، وسبقوهم في الهجرة.. يقول تعالى: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدِّينَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَجْعَلُونَ مِنْ هَاجِرٍ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) [2] وَمِنْ يُوقَ [3] شُجًّا [4] نَفْسَهُ فَأُوتُوا وَلَدِيكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (الحشر/ 10-9). وهنا تتجلى أجمل معاني الأخوة الإسلامية.. أخوة العقيدة والإيمان المشترك، والإيثار، والحب في الله، والطمأنينة لما قسم الله فلا حسد، ولا ضغينة ولا تزاحم.. وهذه هي الأخوة الحقيقية، فالقرآن الكريم يقول، مخاطباً المؤمنين: (بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ) (النساء/ 25)، فالمؤمن من يرى نفسه جزءاً من جسم كبير، جزءاً من الأمة الإسلامية، أو كما يصرح الله سبحانه به "بعضكم من بعض"، أي إنكم جميعاً قطعة واحدة، وتركيب متكامل، يكمل أحدهم الآخر.. وهذه هي الفكرة الأساسية في الأخوة الإيمانية، إنك تعيش فرداً من مجموع متجانس، تسوده الرابطة القلبية التي تجمع أفراداً من مختلف الأجناس واللغات والخلفيات، يجمعهم كلهم ظلال الإيمان، ورسالة التوحيد..

ويصف القرآن، حالة المؤمنين المتآخين، وهم قلوبٌ واحدةٌ رحيمةٌ فيما بينهم، تظللها عناصر المودة والحب والانسجام، وهم كتلة شديدة واحدة أمام أعداء الله.. يفهم القرآن كأنهم براعم الأشجار الفتية التي تتكاثر وتتقوى حول الساق لتستمد منه وسائل القوة، فالبراعم الفتية هم المؤمنون، والساق هو الإسلام، فهم ملتصقون أبداً بالإسلام، وهل يستطيع البرعم أن ينفصل عن الساق، وهل يستطيع المؤمن أن ينفصل عن الإسلام والقرآن؟.. في العرف الطبيعي هذا لا يمكن.. وكذلك في عرف الدين، فالمجموعة المؤمنة عليها أن تلتف حول شيء مركزي، أساسي وهو الإسلام، وعليها أن تتجمع حوله، كالبراعم التي تلتف حول الساق، ليس لها حياة دونه.. وقد أشار القرآن الكريم، إلى أتباع محمد (ص)، وحملة الإسلام ووصفهم كالبراعم المنتشرة على ساق الشجرة تستقي يوماً بعد يوم.. يقول تعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ [5] فَأَزْرَهُ [6] فَاسْتَغْلَظَ [7] فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوَاكِبٍ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً) (الفتح/ 29).

وإذا كانت الأخوة الإسلامية في الحياة الدنيا بهذا الشكل الرائع، تُرى ما هو شكل العلاقات في الحياة الآخرة؟.. في الواقع، تمر العلاقة في الحياة الآخرة، كما يمكن استنتاجها من الآيات الواردة في القرآن الكريم على مرحلتين:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة الحساب والسؤال والمحاكمة، وبها تتوقف كل أشكال الروابط الأسرية، فالقربة، وهي انتهاء إنسانين أو أكثر إلى رحم واحدة، وما يستتبعها من الرحمة والمودة والألفة، لا قيمة لها إطلاقاً يوم القيامة، كما يقول تعالى: (لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْضَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (المتحنة/ 3)، وكما يقول تعالى أيضاً: (فَإِذَا زُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْتُسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ) (المؤمنون/ 101). فإذا برزت الحقائق وارتفعت الحجب، وانكشف الغطاء يوم القيامة، فإن رابطة الأنساب سوف تنقطع، ولن ينفع الإنسان إلا عمله الصالح.. يقول تعالى: (لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) (الأنعام/ 94)، ويقول أيضاً: (وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ عَنْهُمْ الْأَسْبَابُ) (البقرة/ 166).

فالعلاقات والروابط الأسرية كلها تنقطع يوم القيامة، لجلال الموقف ورهيبته، إلى حد لا يفكر الإنسان، وهو يقف أمام رب العالمين إلا بأعماله، فلا يكثرث لابنه أو زوجته أو غيرها، وهكذا الأمر مع الابن والزوجة.. كما يقول تعالى: (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبِ بُيُوتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) (عبس/ 34-37). هذه هي المرحلة الأولى، وهي مرحلة رهبة بطبيعتها.

أمّا المرحلة الثانية، فهي مرحلة التي ينعم بها المؤمنون بما وعدهم الله سبحانه وتعالى.. فيدخل المؤمنون الجنة، فينزع الغل والحقد من قلوبهم، وتنقش سرائرهم، فيصبح الإنسان المؤمن في أمنٍ من قبل نفسه تجاه أخيه المؤمن الآخر، لا يحسده لعلو منزلته في الجنة، وبهذه الوسيلة يمارس المؤمنون أخوتهم المطلقة، فهم إخوانٌ بالإطلاق.. يقول تعالى: (إِنَّ الْمُسْتَقْرَيْنَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمَنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ [8] إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ [9] وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ) (الحجر/ 45-48). وتورد بعض التفاسير أن الأخوة في الله، هي أن ينظر المؤمن إلى أخيه المؤمن، مع ملاحظة إن إشارة التقابل في الآية تدل كناية على عدم تتبع أحدهم عورات إخوانه

وزلاتهم كما يفعل ذلك من في صدره غلّ. ويذكر سبحانه وتعالى أنّ الأخوة الحقيقية هي بين المتّقين فقط، أمّا أصدقاء السوء، فإنّهم يوم القيامة، ليسوا إلّا أعداء متنافرين يلوم بعضهم بعضاً.. يقول تعالى: (الأخلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ * يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ * إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) (الزخرف/ 67-71).

وتبقى حقيقة أخيرة في غاية الأهمية، وهي أنّ لا شيء يؤلّف بين قلوب الناس غير الإيمان بالله سبحانه، فلا الأموال، ولا الهدايا، ولا الملذّات، ولا الكتابات، ولا الدعايات، تؤلّف القلوب، كما يؤلّفها حبّ الله وابتغاء مرضاته.. فالماديات لا تدخل إلى صميم القلب، وأعماق النفس، لتعمل عملها كما يفعل الإيمان.. فالإيمان وحده هو الذي يؤلّف القلوب، ويجعلها مترابطة بحبل الله.. كما يقول تعالى: (هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبِنَاصِرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَاللَّهُ بِئِنَّ قُلُوبِهِمْ لَوَاسِقٌ * مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَقَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنََّّهُ عَزِيزٌ ذَكِيمٌ) (الأنفال/ 62-63).

المصدر: كتاب الأخلاق القرآن

[1]- المراد بالأب هنا العم، وليس الوالد.

[2]- الخصاصة: هي الفقر، وإيثار الشيء اختياره وتقديمه على غيره.

[3]- يوقّ: فعل مضارع مجهول من الوقاية.

[4]- الشحّ: بخل مع حرص فيما كان عادةً.

[5]- شطؤ النبات: البراعم التي تتولد منه، وتنبت حوله.

[6]- الإيزار: الإعانة.

[7]- الاستغلاط: الأخذ في الغلطة، والمعنى هم كزرع أخرج براعمه بأعانها فقويت وغلطت، فأعجب الزارعين

بجودة رشده.

[8]- الغل: الحقد.

[9] - النمب: هو التعب، أو الإعياء الوارد من الخارج.